

(٦)

من غار حراء

« من غار حراء حيث تعبد الرسول وتبحث ،
أوحيت بهبط الوحي بالتسزيل ، انبعث النور الذي
رشد ، والمفتاح الذي فك المأليق ، والرسول الذي
قاد البشرية فأصلحها وأسعدّها وأعلاها . . . »

ولقد اظلمت المسالك اليوم فهي بحاجة إلى مصباح ،
واغلقت ابواب الخير والحق فهي بحاجة إلى مفتاح ،
وتأمت البشرية فهي بحاجة الى هدى الرسول يحقق
لها النجاح والفلاح . . . اذا آن لعالم المعتل ان يطلب
الدواء من الرّبيّة الضراء ، فربيّة صاحب
حراء ١٩٠٤ »

الشراب

من غار حراء

طلعت جبل النور ووقفت على غار حراء وقلت لنفسى، هنا أكرم الله بالرسالة محمداً ﷺ ونزل عليه الوحي الأول فمن هنا طاعت الشمس اتقأضت على العالم نورا جديداً وحياة جديدة ، إن العالم ليستقل كل يوم صباحاً جديداً وحياة جديدة إن العالم صباحاً لا جديفه ولا طرافة ، ولا خيفه ولا سعادة . وما أكثر ما استقبل العالم صباحاً استيقظ فيه الانسان ولم تستيقظ فيه الانسانية ، واستيقظت فيه الاجسام ولم تستيقظ فيه القلوب والارواح . وما أكثر النهار المظلم والصبح الكاذب فى تاريخ العالم . ولكن من هنا طلع الصبح الصادق الذى أشرق نوره على كل شئ . واستقظ فيه الكون وتغير مجرى التاريخ .

لقد كانت الحياة كلها أقفالاً معقدة وابواباً مغلقة ، كان العقل مقفلاً اعياء فتحه الحكماء والفلاسفة كان الضمير مقفلاً اعياء فتحه الوعاظ والمرشدين ، كانت القلوب مقفلة اعياء فتحها الحوادث والآيات ، كانت المواهب مقفلة اعياء فتحها التعليم والتربية والمجتمع والبيئة ، كانت المدرسة مقفلة اعياء فتحها العلماء والمعلمين كانت المحاكم مقفلة اعياء فتحها المنظليين والمتحاكين ، كانت الأسره مقفلة اعياء فتحها المصلحين والمفكرين كان قصر الأماره مقفلاً اعياء فتحه الشعب المظلوم والفلاح المجهود والعامل المنهوك وكانت كنوز الأغنياء والأمرام مقفلة اعياء فتحها جوع الفقراء وعرى النساء وعزير الرضعاء ، لقد حاول المصلحون الكبار والمشرعون العظام فتح قفل من هذه الأقفال ففشلوا واخفقوا ، فان القفل لا يفتح بغير مفتاحه . وقد ضيعوا المفتاح من قرون كثيرة . وجربوا مفاتيح من صناعاتهم ومعادتهم فاذا هى لا توافق الأقفال واذا هى لا تغنى عنهم شيئاً ؛ وحاول بعضهم كسر هذه الأقفال لجرحوا أيدهم وكسروا آلهم .

ففى هذا المكان المتواضع ، المنقطع عن العالم المتمدن ، على جبل ليس بمخصب ولا بشايخ تم مالم يتم فى عواصم العالم الكبيرة ومدارسه الفخمة ومكتباته الضخمة هنا من الله على العالم برسالة محمد ﷺ وفى رسالته عاد هذا المفتاح المفقود إلى الانسانية ، ذلك المفتاح هو (الايمان بالله الرسول واليوم الآخر) ففتح به هذه

الأفعال المعقدة قفلا قفلا وفتح به هذه الأبواب المقفلة بابا بابا ، وضع هذا المفتاح النبوى على العقل المتلوى ففتح ونشط واستطاع ان ينتفع بآيات فى الآفاق والآتس ويتوصل من العالم إلى فاطره ومن الكثرة إلى الوحدة ويعرف شناعة الشرك والوثنية والخرافات والالوهام وكان قبل ذلك محاميا مأجورا يدافع عن كل قضية حقا وباطلا. وضع هذا المفتاح على الضمير الانسانى الا انهم فانتبه وعلى شعور الملت خاتمش وعاش ونحوات النفس الامارة بالنوء مطمئنة لا تسبغ الباطل ولا تتحمل الاثم حتى يعترف الجانى أمام الرسول بجرمته ويلج على العقاب الاليم الشديد وترجع المرأة المذنبه إلى البادية حيث لارقا به عليها ثم تحضر المدينة وتعرض نفسها للعقوبة التى هى أشد من القتل ، ويحمل الجندى الفقير تاج كسرى ويخفيه فى لباسه ليستقر صلاحه وأمانته عن أعين الناس ويدفعه إلى الأمير لأنه مال الله الذى لا يجوز الحياة منه . كانت القلوب مقفلة لا تعبر ولا تزجر ولا ترق ولا تلين فاصبحت خاشعة واعية تعتبر بالحوادث وتتفجع بالآيات وترق للمظلوم وتحنو على الضيف وضع هذا المفتاح على القوى الخنوقة والمواهب الضائعة فاشتعلت كمالهيب وتدفقت كالسيل واتجهت الاتجاه الصحيح فكان راعى الابل راعى الام وخليفته يحكم العالم واصبح فارس قبيلة وبلد قاهر الدول وفتاح الشعوب العريقة فى القوة والمجد ، وضع المفتاح على المدرسة المقفلة وقد هجرها المعلمون وزهد فيها المتعلمون وسقطت قيمة العلم وهان المعلم فذكر من شرف العلم وفضل العالم والمتعلم والمربي والمعلم وفرق الدين بالعلم حتى كانت له دولة ونفاق واصبح كل مسجد من المساجد حوكل بيت من بيوت المسلمين مدرسة واصبح كل مسلم متعلما لنفسه معلما لغيره . ووجد أكبر دافع إلى طلب العلم وهو الدين . وضعه على المحكمة المقفلة فأصبح كل عالم قاضيا عادلا وكل حاكم مسلم حكما مقسطا ؛ واصبح المسلمون قوامين لله شهداء بالقسط ، وجد الايمان بالله ويوم الدين فكثر العدل وقيل الجدل ، ووقدت شهادة الزور والحكم بالجور ، وضعه على الاسرة المقفلة وقد فشا فيها التطفيف بين الوالد وولده ، والاخ واخوته ، والرجل وزوجته ، وتعدى من الاسرة إلى المجتمع فظهر بين السيد وخادمه والرئيس والمرؤس والكبير والصغير ، كل يريد أن ياخذ ماله ولا يدفع ماعليه وأصبحوا مطففين إذا ا كئالو

على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ففرس في الاسرة الايمان وحذروها من عقاب الله وقرأ عليها قول الله (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا) وقسم المسؤولية على الاسرة والمجتمع كله فقال (كلکم راع وكلکم مسئول عن رعيته) وهكذا وجد أسرة عادلة متحابه مستقيمة ومجتمعها عادلا وأوجده في اعضائه شعورا عميقا بالأمانة وخوفا شديدا من الآخرة حتى تورع الامراء وولاة الأمور وتشفوا واصبح سيد القوم خادمهم ووالى الامة كولى اليتيم ان استغنى استغنى وان افقر أكل بالمعروف وأقبل إلى الاغنياء والتجار فزهدم في الدنيا ورغبهم في الآخرة وأضاف الاموال إلى الله فقرأ (وانفقوا بما جعلكم مستخلفين فيه) وقرأ (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) وحذروهم من الاكثار وادخار الاموال وعدم الانفاق في سبيل الله ، فقرأ عليهم (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بذاب اليم ، يوم يحسب عليها في نار جهنم تفتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

ابرز رسوله الله ﷺ برسالته ودعوة الفرد الصالح المؤمن بالله الخائف من عقاب الله الخاشع الأمين المؤثر الآخرة على الدنيا المستهين بالمادة المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية يؤمن بأن الدنيا خلقت له وأنه خلق للآخرة فإذا كان هذا الفرد تاجرا فهو التاجر الصدوق الأمين وإذا كان فقيرا فهو الرجل الشريف السكاجح وإذا كان عاملا فهو العامل المجتهد الناصح وإذا كان غنيا فهو الغنى السخي المواسي وإذا كان قاضيا فهو القاضى العادل الفهم . وإذا كان واليا فهو الوالى المخلص الأمين وإذا كان سيدا رئيسا فهو الرئيس المناوئع الرحيم . وإذا كان خادما أو أجيرا فهو الرجل القوى الأمين . وإذا كان أمينا للاموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم . وعلى هذه اللبنة قام المجتمع الإسلامى وناسبت الحكومة الإسلامية في دورها . ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبرة لأخلاق الافراد ونفسياتهم فكان للمجتمع مجتمعه من الحما

أميناً مؤثراً للآخرة على الدنيا متغلباً على المادة ذير محكوم لها . انتقل اليه صدق التاجر وأمانته وتعفف الفقير وكده ، واجتهاد العامل ونصحه ، وسخاوة الغني ومواساته ، وعدو القاضي وحكمة ، وإخلاص الوالي وأمانته ، وتواضع الرئيس ورحمته ، وقوة الخادم وحراسة الخازن ، وكانت هذه الحكومة حكومة راشدة مؤثرة للمبادئ . على المنافع والهداية على الجباية وبثأثير هذا المجتمع وينفذ هذه الحكومة وجدت حياة عامة كلها إيمان وعمل صالح وصدق وإخلاص وجد واجتهاد وعدل في الأخذ والعطاء وانصاف النفس مع والفهم .

وقد ذهبت في حديثي لنفسي . وتمثلت لى اجتماعات الإسلامية الأولى بجمالها وقاصيلها كأنى اشاهدها واتنفس في جوها وانقطعت الصلة بينى وبين العالم المعاصر .

وجاءت منى التفاتة إلى هذا العصر الذى نعيش فيه فقلبت انى لأرى أقفالا جديدة على أبواب الحياة الانسانية وقد قامت الحياة مراحل طويلة وخطت خطوات واسعة وتعقدت الحياة والتوت وتطورت المسائل وتنوعت وتساءلت هل يمكن فتح هذه الاقفال الجديدة بذلك المفتاح العتيق ؟ وابيت أن أحكم بشىء . حتى اخترت هذه الاقفال وأضع عليها المفتاح ولمس هذه الاقفال بالبنان فاذا هى الاقفال النديمة بتلون جديد ، وإذا المشاكل نفس مشاكل العصر القديم وإذا المشكاة الكبرى وأساس اللازمة هو الفرد الذى لا يزال ابنة المجتمع وأساس الحكومة ، ووجدت ان هذا الفرد قد أصبح اليوم لا يقون إلا بالمادة والقوة ولا يعنى إلا بذاته وشهواته وأنه يبالغ في تقدير هذه الحياة ويسرف في عبادة الذات وارضاء الشهوات وقد انقطعت الصلة بينه وبين ربه ورسالة الانبيا . وعقيدة الآخرة فكان هذا الفرد هو مصدر شقاء هذه المدنية فاذا كان تاجرا فهو التاجر المحكر النهم الذى يحجب السلع أبام رخصم وبرزها عند غلاتها ويسبب المجاعات والازمات . وإذا كان فقيراً فهو الفقير التائر الذى يريد من يتغلب على جهود الآخرين بشير تعب . وإذا كان عاملاً فهو العامل المظفف الذى يريد ان يأخذ ماله ولا يدفع ماعليه ، وإذا كان غنياً فهو الغنى الشحيح

القاسى انذى لارحة فيه ولاعطف ، وإذا كان واليا فهو الوالى الغاشى الناهب
تلاموال ، وإذا كان سيدا فهو الرجل المستبد المستأثر الذى لا يرى إلا إلى
فائدته وراحته ؛ وإذا كان خادما فهو الضعيف الخائن ، وإذا كان خازنا فهو
السارق المختلس للاموال ، وإذا كان وزير دولة أو رئيس وزارة أو رئيسا
جمهورية فهما المادى المستأثر الذى لا يخدم إلا نفسه وحزبه ولا يعرف غيره ،
وإذا كان زعيما أو قائدا فهو الوطنى أو الجنسى الذى يقدر وطنه ويبعد
عنصره ويندوس كرامة البلاد الأخرى والشعوب الأخرى ، وإذا كان مشترعا
فهو الذى يسن القوانين الجائرة والضرائب الفادحة ، وإذا كان مخترعا اخترع
المدمرات والناسقات ، وإذا كان مكتشفنا اكتشف الغازات المبيدة للشعوب
المحرقة للبلاد والقنبلة الذرية تهلك الحرث والنسل ، وإذا كان فيه قوة التطبيق
والتنفيذ لم ير بأسا بالقضاء هذه القنابل على الامم والبلاد .

وهؤلاء الأفراد تكون المجتمع وتأسست الحكومة فكان مجتمعها مادبا
اجتمع فيه احتكار التاجر وثورة الفقير وتطهير العامل وشح الغنى وغش الوالى
واستبداد السيد وخيانة الخادم وسرقة الخازن ونفعية الوزراء ووطنية الزعماء
واجحاف المشرع وإسراف المخترع والمكتشف وقسوة المنفذ وبهذه النفسيات
المادية تولدت أزمات طريفة ومشاكل معقدة تشكو منها الانسانية بثها وحزنها
كالسوق السوداء وفشو الرشوة والفساد الفاحش واختفاء الاشياء والتضخم
النقدى [أصبح المفكرين والمشرعون لا يجدون حلا لهذه المشاكل وأصبحوا
إذا خرجوا من أزمة واجهوا أزمة أخرى بل إن حاولهم القاصرة ومعالجتهم المؤقتة
هى التى تسبب أزمات جديدة وتنقلوا من حكومة شخصية إلى ديمقراطية إلى
دكتاتورية ثم إلى ديمقراطية ومن نظام رأسمالى إلى نظام اشتراكى إلى شيوعى
وإذا الوضع لا يتغير لأن الفرد الذى هو الاساس لا يتغير ويجهلون أو يتجاهلون
فى كل ذلك أن الفرد هو الفاسد المعوج ولو عرفوا أن الفرد هو الاساس وأنه فاسد معوج
لما استطاعوا اصلاحه وتقويمه لانهم على كثرة مؤسساتهم العلمية ودور التعليم
والترية والنشر لا يمكن ما يصلحون به الفرد ويقومون اعرجاجه ويحولون
اتجاهه من الشر إلى الخير ومن الهدم إلى البناء لانهم أفلسوا فى الروح وتخلوا عن

الايمان وقدوا كل ما يغذى القلب ويغرس الايمان ويبعد الصلة بين العبد وربه.
وبين هذه الحياة والحياة الأخرى وبين المادة والروح وبين العلم والأخلاق.
وفي الأخير أدى بهم إفلاسهم الروحي ومادتهم العمياء وإستكبارهم إلى استعمال
آخر ما عندهم من آلات التدمير التي تبعد شعبا بأسره وتخرّب قطرا بطوله حتى
استهدفت الحضارة والحياة البشرية - إذا تبادلك الدول المتحاربة استعمالك
هذه الآلات لنهاية الأليمة .

